

تفسير ابن كثير

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

ثم وصف تعالى أولي الأبواب فقال : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم)

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين ، رضي الله عنه ، أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى

جنبك أي : لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم)

ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) أي : يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على

عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته . وقال الشيخ أبو سليمان

الداراني : إني لأخرج من منزلي ، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت الله علي فيه نعمة ، أو

لي فيه عبرة . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب " التفكير والاعتبار " . وعن الحسن البصري أنه

قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك

حسناتك وسيئاتك . وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك . وربما تمثل بهذا البيت

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة وعن عيسى ، عليه السلام ، أنه قال :

طوبى لمن كان قلبه تذكرا ، وصمته تفكرا ، ونظره عبرا . وقال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، وما فهم امرؤ قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله ، عز وجل ، حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة . وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار ، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها ، وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعا من بين أصحابه ، قد ذهب عقله . وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة ، فناده فقال : يا راهب ، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال . وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتي الخربة فيقف على بابها ، فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : (كل شيء هالك إلا وجهه) [القصص : 88] . وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر ، خير من

قيام ليلة والقلب ساه .وقال الحسن : يا ابن آدم ، كل في ثلث بطنك ، واشرب في ثلثه ،
ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة .وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس
من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة .وقال بشر بن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله
تعالى لما عصوه .وقال الحسن ، عن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين
ولا ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان
التفكر .وعن عيسى ، عليه السلام ، أنه قال : يا ابن آدم الضعيف ، اتق الله حيثما كنت ،
وكن في الدنيا ضيفا ، واتخذ المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ،
وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد .وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه
، أنه بكى يوما بين أصحابه ، فسئل عن ذلك ، فقال : فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها ،
فاعتبرت منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة
لمن اعتبر ، إن فيها مواضع لمن اذكر .وقال ابن أبي الدنيا : أنشدني الحسين بن عبد
الرحمن :نزهة المؤمن الفكر لذة المؤمن العبرنحمد الله وحده نحن كل على خطررب لاه
وعمره قد تقضى وما شعررب عيش قد كان فوق المنى مونتق الزهرفي خرير من العيون

وظل من الشجروسرور من النبات وطيب من الثمرغيرته وأهله سرعة الدهر بالغيرنحمد
الله وحده إن في ذا لمعتبرإن في ذا لعبرة لليبب إن اعتبروقد ذم الله تعالى من لا يعتبر
بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته ، فقال : (وكأين من آية في
السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم
مشركون) [يوسف : 105 ، 106] ومدح عباده المؤمنين : (الذين يذكرون الله قياما
وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) قائلين (ربنا ما خلقت
هذا باطلا) أي : ما خلقت هذا الخلق عبثا ، بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ،
وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا : (سبحانك) أي
: عن أن تخلق شيئا باطلا (فقنا عذاب النار) أي : يا من خلق الخلق بالحق والعدل ،
يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث ، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقيضنا
لأعمال ترضى بها عنا ، ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم ، وتجيرنا به من
عذابك الأليم .